

مناقشة مفصلة لأخطاء "الدولة" في البيعة والولاية - بقلم: مجاهد مأمون ديرانية

- ١ -

يعترف أنصار تنظيم دولة العراق والشام لأميرهم البغدادي بالولاية العامة، فهو عندهم إمام للأمة كلها، ويسمونه "أمير المؤمنين"، ويقولون إنهم يحققون بيعته أصلاً من أصول الدين (أخذاً بحديث "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية").

وقد فتحوا على المسلمين -بيعتهم شخصاً مجهولاً- باب شر عظيم سوف تؤتي الأمة من قبله ما لم يسارع إلى إغلاقه العلماء والعقلاء، هو باب البيعة للمجاهيل واتباعهم والتسليم لهم والقبول بهم أولياء وأمرأء. ولو أننا قبلنا بأن يبقى هذا الباب مفتوحاً لم يبقَ بيننا وبين الرافضة والباطنية فرق، فإنهم أسسوا عقائدهم وحركاتهم وضلالاتهم أول ما أسسوها على هذا الأصل الفاسد، فجاءهم من قبله كل شر ولم يهتدوا من بعده قط.

- ٢ -

إن البيعة عقد كسائر العقود، والعقد لا يتحقق بإرادة منفردة بل لا بد لتحقيقه من توافق واجتماع إرادتين، فلا يُتصور أي عقد بطرف واحد. هل يتم زواج إلا باثنين، زوج وزوجة؟ وهل يكون بيع إلا باثنين، بائع ومشتري؟ فكذلك البيعة لا تكون إلا بطرف يقدمها وطرف يتلقاها. لذلك قال علماؤنا إن العقد لا بد له من ثلاثة أركان: عاقد ومعقود عليه وصيغة العقد (وله عند الأحناف ركن واحد هو الإيجاب والقبول، وهو فرق شكلي بينهم وبين غيرهم لأن الإيجاب والقبول لا يكون إلا بعاقدين).

إذا كانت البيعة عقداً كأي عقد فإن من المقرر شرعاً أن العقد يصبح باطلاً إذا اختل ركن من أركانه، كأن يكون أحد العاقدين فاقد الأهلية -كالمجنون وغير المميز- أو يكون مجهولاً. هل يُتصور مثلاً أن يكون أحد الطرفين في عقد الزواج مجهولاً، فيقول ولي البنت: "زوّجت بنتي رجلاً من الناس"؟ لا يقول بصحة هذا العقد عاقل.

هل الزواج بامرأة أعظم شأنًا أم الولاية على الأمة كلها؟ المسألة محسومة ولا يجادل فيها عاقل: متى كان صاحب البيعة مجهولاً للناس صارت البيعة باطلة. قال الفقهاء: "وحكم العقد الباطل أنه لا يُعدّ منعقداً أصلاً، وإن وجدت صورته في الظاهر فلا يترتب عليه أي أثر شرعي".

- ٣ -

قلت في كتاباتي عن تنظيم الدولة إن بيعة المجهول لا تصحّ فحاجوني ببيعة عمر بن عبد العزيز، واستشهدوا بها على جواز البيعة لمن لم يُسمَّ ومن لا يُعرف.

وهو استشهاد باطل لا يدل على ما يريدون، لكني رأيت جماعات من أنصارهم يكرّرون الاحتجاج به ويظنون أنهم يُخرجون به أنفسهم من هذا المأزق الكبير، فوجب التوضيح.

لقد أخذ رجاء بن حيوة العهد لعمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك في كتاب مطوي لا يُعرف اسم صاحبه، هذا صحيح، ولكن تلك البيعة الخاصة التي أُخذت من رؤوس البيت الأموي ووجهائه بلا اسم سرعان ما أعقبتها البيعة العامة التي تمت لعمر بن عبد العزيز باسمه وشخصه، وهي البيعة الحقيقية التي كرّسته ورسّخته إماماً للمؤمنين، ولو لم يبايع مبايعة عامة وهو معروف مكشوف لما كانت للبيعة الخاصة السابقة قيمة تُذكر.

قال الشيخ الدكتور محمد أبو فارس في كتابه "النظام السياسي في الإسلام" (ص ٢٢٩): "الدارس لكتب الأقدمين يجد أن اختيار رئيس الدولة كان يتم على مرحلتين، الأولى "مرحلة الترشيح" وتسمى البيعة الخاصة، حيث يقوم أهل الحل والعقد باختيار الخليفة وترشيحه للأمة. الثانية هي البيعة العامة، وهي أقرب ما تكون إلى الاستفتاء العام، وهي المرحلة الحاسمة التي تقرر صلاحية المرشح للخلافة أو عدم صلاحيته، فإذا بايعه الناس يصبح بيعتهم إماماً، وإذا رفضوه لا تنعقد إمامته ويتوجب على أهل الحل والعقد ترشيح غيره للأمة".

- ٤ -

أكثر أهمية مما سبق أن ولاية أمير المؤمنين لا يمكن أن تصبح صالحة (أو "سارية المفعول" بالتعبير العصري) إلا إذا كان معروفاً للناس، مهما تكن الطريقة التي أخذت له بها البيعة.

جاء في سيرة عمر بن عبد العزيز (لابن عبد الحكم) أن رجاء بن حيوة خرج إلى القوم وهم مجتمعون في المسجد، وجوه بني أمية وأشراف الناس، فقال: "يا أمركم أمير المؤمنين أن تبايعوا لمن عهد إليه في هذا الكتاب"، فبايعوا. ثم أخذ بيد عمر فأصعده المنبر، وتمنّع عمر فناشده رجاء وخوّفه من الله أن ينفرط عقد المسلمين إن هو أبى. فقام عمر على المنبر وفتح الكتاب فوجد فيه استخلافه، فخطب الناس فقال: "أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ولا طلب له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختراروا لأنفسكم". فصاح الناس كلهم: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك. ثم قاموا فبايعوه.

فظهر من ذلك أن البيعة الأولى التي أخذت على كتاب مطوي لا يُعرف اسم صاحبه، ظهر أنها بيعة خاصة لم تؤخذ إلا من أشراف البيت الأموي وبعض وجوه الناس، أما البيعة العامة التي أعقبتها بزمان ضئيل (ساعة أو نحوها) كما يظهر من الرواية) فقد كانت لرجل معروف بالاسم ومعروف بالسيرة والتاريخ الطويل.

إذن فإن الحقيقة الكبيرة الناصعة التي لا يُمارى فيها هي أن الخليفة لم يُمض يوماً ولا ساعة في عمله وسلطانه إلا بعدما عُرف وكُشف ورضيه الناس، عامتهم وخاصتهم. أين هذا من المدعوّ أبي بكر البغدادي الذي ما يزال مستتراً مجهولاً وقد انقضت على ولايته سبع سنين كما يزعمون؟ سبع سنين لم يَره فيها أحدٌ من “رعيّته”، ولا حتى إماماً للصلاة ولا خطيباً للجمعة، فضلاً عن إدارة البلاد وقيادة الجيوش!

بقيت نقطة في هذه المسألة سأناقشها في الحلقة المقبلة إن شاء الله، وهي قولهم إن البغدادي معلومٌ غير مجهول، ونشرهم له صورةً وسيرةً حياةً مختصرة. هذا الزعم أوهى من أن يُلقى له بال، ولكن كثيرين من أنصار “الدولة” تعلقوا به وحسبوه شيئاً (وما هو بشيء) فلزم الرد عليه ببعض التفصيل.

مناقشة مفصلة لأخطاء “الدولة” في البيعة والولاية – بقلم: مجاهد ديرانية

(٢) بيعة البغدادي

- ١ -

أخذ الناس على أصحاب “دولة العراق والشام” وأنصارها أن إمامهم مجهول، فلبثوا حيناً من الزمن يبرّون صحة بيعة المجهول ويستشهدون لها بأدلة لا تقوم. ثم نُشرت له في بعض المواقع الإلكترونية ترجمة مطوّلة، ففرح أنصاره بها وتركوا تبرير ولاية المجهول لأنهم اكتشفوا أنه صار بتلك الترجمة معلوماً، وراحوا يطّرونها بين الناس حتى شَرقت وغرّبت. فما تصوّرتهم إلا كركب في قافلة ضلّوا الطريق في الصحراء أياماً حتى أشرفوا على الهلاك، ثم وقعوا على رغيف خبز يابس، فخيّل إليهم الجوع واليأس أنهم عثروا على مئة من الذبائح مطبوخة في الرز والشريد، فأناخوا ونزلوا للأكل وراحوا يدعون الآكلين!

رويداً يا أيها المستبشرون، فإنكم ما صنعتُم شيئاً؛ كان صاحبكم مجهولاً قبل أن تنشروا له تلك الترجمة وبقي بعدها من المَجاهيل. إن أي واحد يستطيع أن يطرز مقامةً بديعة في تقريظ من يشاء، فليس نشر “سيرة شخصية” هو ما يميز المعروف من المجهول. وليس ينفي عنه الجهالة أيضاً قولكم إنه يعرفه أصحابه في سامراء وفي غيرها، وهل أحدٌ من أبناء آدم – بالله عليكم – لا يعرفه بعض الناس؟ لو كانت معرفة بعض الناس بالواحد من الناس تجعله معروفاً حقاً فما في الدنيا مجهول، فحتى حارس الكرم وصيّ البقال يعرفهما الأهل والأقارب والأصحاب والجيران. لكن هل هذه هي المعرفة التي تُبيح لصاحبها أن يترشح لقيادة الأمة وتتيح له أن يصير أمير المؤمنين؟

إن الجهالة المانعة من الولاية العظمى لا تزول بمعرفة بعض الناس لأن سبب المنع لا يرتفع بمعرفة العدد القليل. إنها تزول بمعرفة الجموع عن الجموع، لأن الأصل في من يُبايع لهذه الولاية أن يكون صاحب كلمة مسموعة في الأمة يلتقي عليه الناس، وهذا لا يتحقق إلا في رجل يعرفه عامة الناس. هذه هي العلة في اشتراط القُرَشِيَّة في الإمام (الأئمة من قريش). يقول ابن خلدون في التعليق على الحديث: "إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم نجد إلا اعتبار العصبة التي تكون بها الحماية، والتي يرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها".

مَن كان كذلك يُقال إنه معروف غير مجهول، أمّا رجلٌ مستتر بين عشرات من أصحابه أو مئات فإنه لا يُقال فيه معروف، وهو قد يصلح أميراً عليهم لأنه يعرفهم ويعرفونه، أما أميراً على الأمة كلها فلا. وقد انتشرت في بعض صفحات الثورة في الآونة الأخيرة عبارة عظيمة لشيخ الإسلام فيها خلاصة المسألة، أنسخها هنا ليقراها من لم يطلع عليها من قراء هذه المقالة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب "منهاج السنة": "إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين الذين لهم سلطان يُقدرون به على سياسة الناس، لا بطاعة معدوم ولا مجهول ولا مَن ليس له سلطان".

لو أن الفيفا (الاتحاد الدولي لكرة القدم) أعلن عن منافسة لاختيار أعظم لاعب في العالم وطلب من أنصار الكرة في كل البلاد أن يختاروا واحداً، ثم جاءت ثلّة من اللاعبين من أحد أحياء بلدة صغيرة في بلد بعيد فقالوا: إننا نرشح لهذا اللقب العظيم لاعبنا الكبير وأفضل مهاجم في الدنيا. سيقول الناس: ومن هذا؟ يقولون: اللاعب الكبير "فراس أبو راس"، فإنه لا يخوض نزالاً كروياً إلا ويضع في مرمى الخصم خمسة أهداف فما فوقها، كلها بضربات رأسية صاروخية ليس لها في الدنيا مثيل.

سيقول الناس: جميل، ولكنه لاعب مجهول، ولا يستطيع أنصار الكرة في أنحاء الأرض منح أصواتهم لمجهول. سيغضب أصحابه ويثيرون ويقولون: كيف يكون مجهولاً وكل أعضاء الفريق يعرفونه ويعرفون مهارته وسجله الكروي الطويل، بل إن أهل الحارة كلهم يعرفونه حق المعرفة ولن يمنحوا أصواتهم إلا له. يقول الناس: لكن نحن لا نعرف فريقكم الذي يعرفه، بل إننا لا نعرف حارتكم كلها، فإن يكن معروفاً فهو معروف عندكم، فاختروه نجم الملاعب في الحارة إن شئتم، بل في البلدة كلها، أما نحن -أهل الأرض- فليس الرجل عندنا سوى مجهول من المجاهيل.

هذا مثال أبي بكر البغدادي وأصحابه الذين يريدون أن يفرضوه أميراً للمؤمنين وإماماً لأمة المسلمين.

- ٤ -

لو أن أحدكم أنفق أربعين سنة من عمره في كدّ وجهد وعمل دؤوب حتى اجتمعت له ثروة صغيرة هي خلاصة تلك السنين الطويلة، ثم جاءه شخص فقال: إني أعرف مشروعاً تجارياً يديره رجل عبقرى، فهات كل ما ادخرته من مال ليثمره لك. تقول: هل هذا الرجل معروف؟ يقول لك: بالطبع، وقد قرأت عنه مقالة في الإنترنت تقول إنه أدار تجارة ناجحة وريح ربحاً وفيراً، حتى إن شركاءه اختاروه مديراً للشركة التي أنشئوها، ولولا أنه مدير قدير لما استأمنوه على أموالهم. تقول: وهل تعرف أنت أولئك الشركاء معرفة وثيقة؟ فيقول: لا والله لم أرهم قط، ولكني قرأت في الإنترنت إنهم ثقات مأمونون.

يا أنصار الدولة: استحلّفكم بالله: لو أن أحداً منكم عرض عليه هذا العرض، أكان يضع ثمرة عمله وصَفوة ماله في أيدي أولئك الناس؟ نشدتكم الله أن تصدّقوا مع أنفسكم، هل ترون أن مثل هذا المدير "معروف" بحيث تضعون في يديه كل ما تملكون من مال؟ إن كان الجواب بالإيجاب فعوضكم على الله، وإن كان جوابكم أن "لا" فإني أسألكم: كيف أبيتم أن تستأمنوا على المال رجلاً هذا مبلغ علمكم به، ثم استأمنتم رجلاً لا يزيد علمكم به عنه على مصير سوريا والعراق وأردتم فرضه على أمة المسلمين؟

يا أيها العقلاء: أنشدكم الله أن تراجعوا أنفسكم، وأسألكم بالله أن تتقوه في الجهاد والبلاد والعباد، فإنها أثمن من أموالكم وأموال الناس أجمعين.